رأي ابن رشيق المسيلي القيرواني في الشعر ومكانته النقدية

أ.د- مفقوده صالح

قسم الأدب العربي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة محمد خيضر بسكرة

أولا: تقديم

يتناول هذا الموضوع نظرة ابن رشيق للشعر من حيث جملة من النقاط أهمها حد الشعر وبنيته، وقضية اللفظ والمعنى، ثم قضية السرقات الشعرية، وفضلت استخدام كلمة نظرة متجنبا لفظة نظرية، فذلك أبعد عن الميل العاطفي أو التعصب، وقد نرجئ الحديث عن نظرية في الشعر تنسب للرجل إلى وقت آخر، بعد الدراسة المتأنية لنتاجه النقدي والإبداعي.

ثانيا:من هو ابن رشيق (1):

هو أبوعلي الحسن بن رشيق المسيلي مولدا القيرواني شهرة، ولد بالمسيلة عام 309 للهجرة من أب رومي من موالي الأزد، كانت صنعته الصياغة.

تأدب الفتى بالمسيلة، وتعلم صنعة أبيه، ولما تاقت نفسه إلى المزيد من العلم والمعرفة رحل إلى مدينة القيروان، وبها وفيها اشتهر واستقر، ولم يزل بها حتى هجمت عليها قبائل سليم وهلال منتصف القرن الخامس الهجري، وخربوها فهاجر إلى جزيرة صقلية عام 406 هـ، وأقام بمدينة مازر وبقي بها إلى أن توفي عام 463 هـ وقيل أنه قبيل وفاته قال:

يا رب لا أقوى على دفع الاذي وبك استعنت على الضعيف الموذي

مالي بعثت إلي الف بعوضةوبعثت واحدة إلى نمرود(2)

اشتهر بتصانيفه المتعددة وأهمها ثلاثة:

1. **قراضة الذهب.**

2. **أنموذج الزمان من شعراء القيروان.**

3. **كتاب العمدة**، وهو كتاب في الثقافة الأدبية والنقد بوجه عام، وقد قال عنه ابن خلدون:

" انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثلها(3)".

إننا عندما تعتني اليوم بهذا الرجل العلامة فإنما نقوم بإحياء تاريخنا العلمي الزاهر، ونثبت وفاءنا للأسلاف الميامين، وإحياؤنا لذكرى ولمآثر ابن رشيق ليس من باب الاحتفال والاحتفاء برجل فرد، فابن رشيق ليس إلا واحد من جملة أدباء وعلماء ونقاد مغاربة نذكر من هؤلاء الأفذاذ(4):

ثالثا :حد الشعر وبنيته:

خصص ابن رشيق بابا في كتاب العمدة عنونه بـ: "حد الشعر وبنيته(5)" وللفظة حد ولفظة بنية أهمية، فبيان حد الشعر يعني التصدي الدقيق لهذا الشيء بالتعريف والتحديد.وللفظة بنية أهميتها، فهي تدل على نظرة الناقد للشعر على أنه نوع من البناء ،ولو كان ابن رشيق معاصرا واستخدم هذه العبارة لعددناه متأثرا بالمذهب البنيوي، ولكنه سابق.فالنقد العربي إذن يؤمن بالبنية، وابن رشيق في تعرضه للشعر يتناول عناصره تناولا بنيويا أو قريبا من ذلك، وفي رأيه أن الشعر يقوم بعد النية على أربعة أشياء هي: اللفظ، الوزن، المعنى، القافية(6).

إن اللفظ والوزن والقافية والمعنى هي العناصر المتداولة في النقد العربي منذ القديم، وقد ركز الجاحظ وابن سلام الجمحي وابن قتيبةالدينوري على الألفاظ الجميلة والتعابير المنسجمة في الشعر.

وركز قدامة بن جعفر على الوزن والقافية مع عدم إهمال العناصر الأخرى، فالشعر عنده: كلام موزون مقفى يدل على معنى(7)، وهذا التعريف مشهور ويتميز بالمنطق ولا يكاد يولي اهتماما بالخيال والعاطفة.

أما ابن رشيق فقد جمع بين هذه الأمور وأكد على لب لباب الشعر وهو الشعور والعاطفة فالشعر في مفهومه قوامه الألفاظ المتظرفة...والمعاني المخترعة أو المولدة التي تهز النفوس، وهذا دليل على التطرق للجانب العاطفي يقول: "وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع، فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبُني عليه، لا ما سواه(8)".

يذهب الدكتور بشير بن خلدون محقا إلى أن اعتبار ابن رشيق القيرواني أن الشعر جامع بين الموسيقى والخيال والعاطفة أمر يجعل منه صاحب نظرية سبق بها النقاد العرب وحتىالغربيين أنفسهم، الذين كانوا ولا زالوا ينادون بها حتى اليوم[9].

وحين نتكلم عن النقاد العرب يجدر بنا التذكير بالمدرسة النقدية المهمة في مطلع العصر الحديث وهي جماعة الديوان التي بدورها اهتمت بالشعر أكثر من النثر، وجاء في تعريف الشعر عند زعيم هذه المدرسة وهو العقاد قوله:"الشعر هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق"[10].

ويتعلق التعبير الجميل بجانب الصياغة بالدرجة الأولى وأهم أدوات التعبير الجميل الخيال الشعري والمجاز الشعري وقد استفادت مدرسة الديوان في الحديث عن الخيال الشعري من المدرسة الرومنتيكية في الغرب، وخاصة فيما يتعلق بملكةالخيال ودوره في صياغة الشعر، وقد استفادوا على الخصوص من آراء كولردج ووردزورث.

وهكذا نرى أن ابن رشيق له الرأي الجيد في هذا الفن؛ ومن ثمة فإن بشير خلدون ليس مخطئا عندما قال إن الرجل صاحب نظرية في هذا المجال.

وقد ربط ابن رشيق بين البيت من الشعر والبيت الذي يسكنه الناس فقال: "والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع وسمكه الرواية، ودعائمه العلم وبابه الدربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون"[11].

إن ابن رشيق يشترط إذن الطبع والرواية والعلم والدربه فالشعر يجب أن يدل بطبيعة الحال على معنى.

إذن فابن رشيق ذكر العناصر الشعرية التي ذكرها النقاد من قبله، وتميز عنهم بالتركيز على عناصر أخرى منها النية أو القصد مما يدل على أن الشعر عمل واع، وليس مجرد عبث وهو موهبة يجب صقلها بالرواية والتعلم والمران، وهذا أمر مهم، مرده كما يقول بشير خلدون إلى أن ابن رشيق " كان شاعرا فنانا قبل أن يكون ناقدا يستعمل ذوقه كأديب، وحسه كفنان، وعقله كمثقف.ومن هنا كانت نظرته إلى الشعر نظرة متكاملة؛ بل هي نظرة ناقد متذوق يدرك عناصر الجمال، ويعرف أسراره وخباياه"[12].

وانطلاقا من هذه النظرة للشعر وتحديد مفهومه وذكر عناصره راح يصنف الشعراء فقال في ذلك:"وإنما سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعربمالايشعر به غيره، فإذا لم يكن عند

الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ولم يكن له إلا فضل الوزن وليس بفضل عندي مع التقصير"[13].

وبذلك فإن ابن رشيق يعارض مقولة أن الشعر كلام موزون مقفى دال على معنى؛ بل الشعر عنده شعور، والشعر عنده تجديد، والشعر عنده انزياح عن المألوف في اللفظ، بالاختصار أو الإطالة أو التحويل.والشعر بهذا القدر من الابتداع، وهذا القدر من السمو ليس سهل المنال، ولذلك عده ابن رشيق كالبحر "إن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل أهول ما يكون على العالم وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته"[14].

وكما فعل غيره من قبل فقد قسم الشعراء التقسيم التاريخي المشهور إلى شاعر جاهلي وإسلامي ومخضرم وشاعر محدث وذكر التقسيم الآتي فقال:الشعراء أربعة:

- شاعر خنديد: وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره.
- شاعر مُفلِق: ويختلف عن الأول في كونه المفلق لا رواية له لكن شعره جيد.
- وشاعر فقط وهو فوق الرديئ.
- وشعرور: وهو لا شيء[15].

وعن أغراض الشعر قال: وقالوا: قواعد الشعر أربع الرغبة والرهبة والطرب والغضب فمع الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع.ويذلك يخلص إلى الحديث عن أغراض الشعر المشهورة، منطلقا من الأركان الأربعة التي تعتري الشاعر: الرغبة– الرهبة– الطرب الغضب، وهما ثنائيتان يعكسان حالات من الانفعال الشرط اللازم لقول أو كتابه الشعر.

رابعا: اللفظ والمعنى:

طرحت قضية اللفظ والمعنى في النقد العربي منذ القديم، قد تناولها الجاحظ في إطار الثنائيات التي تطرق لها من مثل فكرة الجوهر والعرض والثواب والعقاب والجبر والاختيار.

جاء في الجزء الثالث من دائرة المعارف الحيوان قول الجاحظ: وذهب الشيخ – ابو عمر الشيباني– إلى استحسان المعنى والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير. (16)

قال الجاحظ هذه العبارة بعد أن أورد بيتين من الشعر استحسنها الشيخ، عندما سمعها في المسجد فبلغ به الأمر أن أمر من أحضر له دواة وقرطاسا وكتبها، والجاحظ يرى أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا:

هذان البيتان هما:

لا تحسبن الموت موت البِلَى فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا أفضع من ذاك لذل السؤال(17)

وبعد أن يرفض البيتين يورد مقولته السالفة الذكر والمشهورة في النقد العربي، والتي صنف بها الناس الجاحظ من أنصار اللفظ.

وإذا كان الجاحظ قد انتقد الشيخ أبا عمر الشيباني فإنه يعود فيؤكد أهمية اللفظ والمعنى على حد سواء وذلك في قوله: وقال بعضهم وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه –لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك". (18)

تؤكد هذه الفقرة تأكيد الجاحظ على تلاؤم اللفظ مع المعنى، وكذلك من جاء بعده من النقاد، فلم يقل أحدهم بعدم أهمية طرف على آخر، وإنما الظاهرة الملاحظة أنهم قاموا

بهذا التقسيم؛ الامر الذي نجده عند ابن قتيبة الذي قسم الشعر إلى أربعة اضرب، ضرب منه

- حسن لفظه وجاد معناه.
- ضرب حسن لفظه وساء معناه.
- ضرب قصرت ألفاظه وجاد معناه.
- ضرب ساء لفظه ومعناه.

وإلى مثل هذا التقسيم المنطقي ذهب قدامة بن جعفر وابن طباطبا، والعسكري.

وبقي الأمر على هذه الشاكلة إلى أن أتى الجرجاني بنظرية النظم الشهيرة التي تعد فتحا مبينا في النقد العربي.وفكرة النظم عند الجرجاني تستند إلى التفريق بين أمرين هما: استعمال اللغة بقصد الإشارة، واستعمالها للتعبير عن الانفعال.

إن اللفظة المفردة هي مجرد إشارة أو اصطلاح يدل في حالة إفراده على معنى مجرد، ولكن اللفظة عندما تدخل في تركيب معين أو في سياق محدد فإن السياق هو الذي يمنح المفردة دلالتها وهو القادر على منحها الحيوية والحركة، ويحكم عليها بالصلاح أوالفساد.

إن الكلمة وسط السياق تحمل شحنة من العواطف الإنسانية والصور الذهنية إلى جانب ما فيها من معنى عقلي.ويرى الجرجاني أن معرفة النحو أمر لا يكفي لفهم روح اللغة؛ بل لابد من معرفة أسرارها.

لقد ربط الجرجاني بين النحو وبين المعاني، والمعاني هي الألوان النفسية التي ندركها من خلال علاقات الكلام بعضه ببعض، وقد أورد الجرجاني العديد من الجمل وكان يغير ترتيب كلماتها ويوضح انها تختلف فيما بينها والاختلاف ليس في النحو.يورد الجرجاني الجمل الآتية:

زيد منطلق – زيد ينطلق– ينطلق زيد– منطلق زيد – زيد المنطلق – المنطلق زيد – زيد هو المنطلق – هو المنطلق زيد.

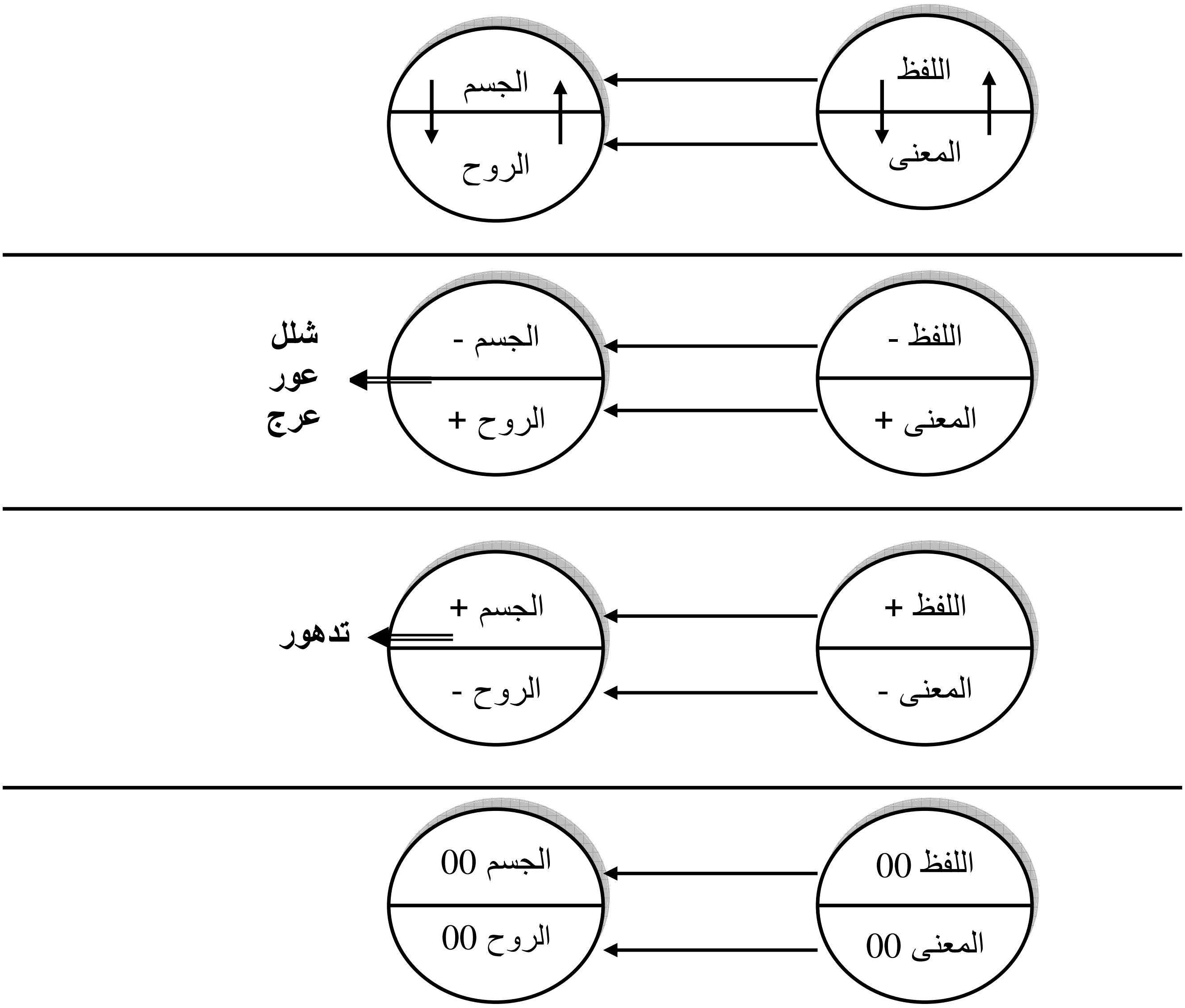
إن معرفة القاعدة النحوية ليس هو الهدف وإنما الدلالة على المعنى هي الهدف، واللغة تعرفها بإحساسك وذوقك قبل أن تعرفها بما حفظت من قواعد، واللغة لا تعطى

أسرارها إلا لمن سبر أغوارها بإحساسه، ومن يحسن مصاحبتها ومعاشرتها ومن يطيل النظر فيها بما وهبه الله من قدرة على التمييز بين الأساليب وتذوقها والإحساس بها.

وباستثناء عبد القاهر الجرجاني فإن مختلف النقاد قد تطرقوا إلى ثنائية اللفظ والمعنى، ومعظمهم كان يهتم بالطرفين وبعضهم كان يؤثر اللفظ وأقلهم كان يؤثر المعنى، فهناك اختلاف بين الطرفين حصل في المشرق ومثله الاختلاف الحاصل في المغرب، فقد كان عبد الكريم النهشلي أستاذ ابن رشيق يهتم باللفظ؛ في حين كان أبو إسحاق الحصري يهتم بالمعنى، فما موقف ابن رشيق من كل ذلك؟.

خص ابن رشيق هذه المسألة بباب عنونه بـ(باب في اللفظ والمعنى) يقول ابن رشيق : اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم...فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل...ومن غير أن تذهب الأرواح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظ (هكذا) كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الروح...فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين إلا انه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأننا لا نجد روحا في غير جسم البتة".[19]

يرى ابن رشيق أن العلاقة بين اللفظ والمعنى كالعلاقة بين الجسد والروح، فأي خلل في أي منهما يؤثر في الآخر، إن الفساد الجزئي للمعنى يؤثر سلبا على اللفظ، وبالتالي على النص والفساد الكلي للمعنى يميت النص أصلا.



اللفظ
المعنى
الجسم
الروح
اللفظ -
المعنى +
الجسم -
الروح +
شلل
عور
عرج
اللفظ +
المعنى -
الجسم +
الروح -
تدهور
اللفظ 00
المعنى 00
الجسم 00
الروح 00

هناك علاقة أفقية بين: اللفظ–الجسم

والمعنى– الروح

وهناك علاقة عمودية بين اللفظ/ المعنى والجسم/ الروح، إن سلامة كل منهما تؤدي إلى سلامة الآخر، وبالتالي إلى سلامة الوحدة الأساسية (النص– الإنسان).

2. إن الاختلال في الطرف الأول يؤثر سلبا على النص – الإنسان.

3. الاختلال في الطرف الثاني يؤثر سلبا على النص – الإنسان.

وكذا على اللفظ – الجسم.

4.موت الطرف الثاني يؤدي إلى جمود الطرف الأول.

5. والعكس أيضا.

نخلص إلى القول إن ابن رشيق يعتبر القصيدة أو الشعر كائنا حيا، وهذه فكرة نقدية طالما رددها النقاد المعاصرون، وتم تطبيقها على الوحدة العضوية في القصيدة المعاصرة.

وفي النقد الحديث والمعاصر يتكلمون عن حياة النص وخفاياه، كما يتحدثون عن الكائن البشري، وهو ما أشار إليه ابن رشيق الذي ربط بين اللفظ والمعنى، ويكاد ألا يفصل احدهما عن الآخر ولكنه كغيره من النقاد ينطلق دوما وبدءا من اللفظ ويعود إليه، مما يوحي بأنه أميل إلى الألفاظ منه إلى المعاني وحتى في إيراده آراء الآخرين اهتم أكثر بمن يؤثر اللفظ على المعنى، بل أنه صرح قائلا:

وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى سمعت بعض الحذاق يقول: قال العلماء: اللفظ أغلى من المعنى ثمنا وأعظم قيمة، وأعز مطلبا، فإن المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة اللفظ وحسن السبك وصحة التأليف"[(20)].

إن هذه العبارة تكاد تكون ترديدا لما قاله من قبل الجاحظ: "المعاني مطروحة في الطريق"، وقد استتبع ذلك إخراج الفلسفة والأخبار من ميدان الشعر"والفلسفة وجر الأخبار باب آخر يميز الشعر فإن وقع فيه شيء منهما فبقدر، ولا يجعل نصب العين فيكون متكئا (هكذا) واستراحة، وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس، وحرك الطباع، فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبني عليه لا ما سواه"[(21)].

إن ابن رشيق يكاد أن يوفق بين الرأيين ولكنه سرعان ما ينتصر للفظ متجاهلا نظرية الجرجاني،التي لم تجد ناقدا يتعمق فيها، ومال النقاد بعده ومنهم ابن رشيق إلى الحديث عن ثنائية اللفظ/المعنى فكرر مقولات السابقين وبخاصة الجاحظ.

ولا غرابة أن ينتصرابن رشيق للفظ فكونه شاعرا مطبوعا وذواقة يجعله هائما بالألفاظ متأثرا بها وهي الصفة التي يشترك فيها مع الجاحظ وغيره من المطبوعين، أو العرب الأصلاء، أما أهل الصنعة أو غير العرب فكانوا يؤثرون المعاني وتوليدها فمالوا إلى المعنى أكثر من اللفظ.

وقد ذهب ابن رشيق إلى ابعد من ذلك حين اشترط على الشعراء عدم الخروج عن الألفاظ الشعرية المألوفة إلا في حدود فقال:"وللشعراء ألفاظ معروفة، وأمثلة مألوفة، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها...إلا أن يريد شاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أجنبي، فيستعمله في الندرة وعلى سبيل الخطرة، كما فعل الأعشى قديما وأبو نواس حديثا فلا بأس بذلك"[22].

وبذا يبين ابن رشيق عن طبيعة الناقد الشاعر العربي، المحافظ على الألفاظ الشعرية المألوفة.

خامسا: السرقات الشعرية:

السرقة هي اختلاس ما للآخرين، وهي في الشعر أخذ أشعار الآخرين جزئية أو كلية، ولفظة السرقة وفعل السرقة فعل مستنكر في الحياة الاجتماعية، ولكن السرقة في الشعر أمر آخر فهي من الاتساع والتعدد؛ بحيث لا يمكن اعتبارها عيبا بجميع أشكالها، ذلك أن من هذه الأشكال ما هو ممدوح ومستحب، ولكن لفظ السرقة هو المستهجن، ولعل سبب إطلاق هذه اللفظة أن خصوم المجددين وعلى رأسهم أبا تمام نفوا عن هذا الأخير كل ابتداع وتتبعوا شعره فبينوا أنه آخذ من غيره، واعتبروا ذلك من السرقات وألفوا فيه، وبينوا أصنافا كثيرة من السرقات الشعرية.وتناول هذه المسألة في شعر الشاعر يكشف أصالة الشاعر، ومدى اعتماده على غيره أو ابتكاره في فنة. [23]

والسرقة ترتبط باللفظ أو المعنى أو بهما معا، وهناك من يربطها بالمعنى فقط "ولذلك راح القاضي الجرجاني يقسم المعاني إلى معان عامة مشتركة يجوز تداولها، وخاصة وهي التي يمكن أن يدعى فيها السرقة"[24].

إن قضية التأثر بمن سبق وبمن عاصر، أمر بديهي، وقد نبه إليه الجاحظ في قوله: ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم أو في معنى بديع مخترع إلا وكل ما جاء من الشعراء من بعده أو من معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكا فيها كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء، فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحدهم أحسن بذلك المعنى من صاحبه".(25).

هي مسألة إذن مطروحة مطروقة قبل ابن رشيق، وهي مسألة جوهرية تتصل باللفظ والمعنى، وترتبط بأصالة الشعراء وقد تصدى لها ابن رشيق الذي لم يسلم بدوره من التهمة بالسرقة، فحين قال ابن رشيق في إحدى قصائده:

إذا ضربت فيه الطبول تتابعت به عذب يحكي ارتعاد الأصابع
تجاوب نوح بات يندب شجوه وأيدي ثكالى فوجئت بالفواجع(26)

اتهمه أحدهم بسرقة معنى بيتي عبد الكريم النهشلي في قوله:

قد صاغ فيه الغمام أدمعه دررا ورواه جدول غمْر
تجيش فيه كأنما رعشت إليك منه أنامل عشر(27)

فكانت هذه الملاحظة النقدية مدعاة لتأليف كتاب قراضة الذهب وهو رسالة صغيرة كتبها ابن رشيق إلى الحسن بن علي أبي القاسم اللواتي، الذي كان استحسن بيتي ابن رشيق، وبين ابن رشيق أن اشتراكه مع عبد الكريم النهشلي في ذكر ارتعاش الأصابع لا يعد سرقة لأن القصد غير واحد، وبذلك فإن قراضة الذهب يعد محاولة لدراسة السرقات الأدبية(28).

وقد خص ابن رشيق هذه القضية في كتاب العمدة بباب مستقل سماه "السرقات وما شاكلها" أوضح منذ البدء أن هذا الباب متسع جدا لا يستطيع أحد من الشعراء ادعاء السلامة منه، وفيه أشياء غامضة إلا على البصير الحاذق بالشعر، وأشياء فاضحة لا تخفى على الجاهل.

واستنادا إلى قول الجرجاني أوضح أن المرء لا يعد ناقدا إلا إذا كان يستطيع التفريق بين تلك الأنواع من الأخذ "ولست تعد من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علما برتبة ومنازله فتفصل بين السرقة والغصب وبين الإغارة والاختلاس.وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز إدعاء السرقة فيه، والمبتذل الذي ليس واحد أحق به من الآخر، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه، واجتباه السابق فاقتطعه[29].

وبعد أن أوضح رأيه في أن اتكال الشاعر على السرقة بلادة، وعجز، وتركه كل معنى سبق إليه جهل، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات[30].

فليست السرقة بذلك مذمومة كلها؛ بل هناك أصناف لابد منها، ولذلك نجد نبيل رشاد نوفل وهو يتكلم عن رأي الحاتمي في السرقات الشعرية يقدم الأصناف الآتية:

ما يعد سرقة، ما لا يعد سرقة، وسائل السرقة، حالات السرقة، حكم السرقات[31].

وقد اورد ابن رشيق الأصناف التي ذكرها الحاتمي لكنه لم يكلف نفسه عناء تعريف كل نوع، واكتفى بضرب أمثلة عنه للتوضيح، وقد تطرق إلى الأنواع الآتية:

1. –الاصطراف ويشمل كلا من الاجتلاب والاستلحاق والانتحال.

- الإغارة.
- الاهتدام.

2. –النظر والملاحظة.
3. المرافدة
4. الاهتدام
5. –الإلمام.
6. –الاختلاس.
7. –الموازنة.
8. –المواردة.
9. –الالتقاط والتلفيق.
10. –كشف المعنى.

11. -نظم النثر وحل الشعر.

وفي حديثنا عن كل عصر سنلجأ إلى تعريف كل نوع اعتمادا على ما جاء عند ابن رشيق أو الناقد الحاتمي، باعتباره المصدر الأساس لابن رشيق.

1. الاصطراف يقع الاصطراف في الشعر على نوعين.

1- والاجتلاب: وهو الاستلحاق: أن يجتلب الشاعر بيتا أو جملة أبيات لغيره.

2- الانتحال: أن يدعي شاعر شعرا لغيره، والفرق بين الانتحال من جهة والاجتلاب والاستلحاق أن الانتحال يتعلق بالقصيدة كاملة.

2. **الإغارة:** هي أن يصنع الشاعر بيتا ويخترع معنى فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا وأبعد صوتا فيروى لهذا الأخير دون قائله الأول، كما فعل الفرزدق بجميل وقد سمعه ينشد:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

فقال له: متى كان الملك في بني عذرة إنما هو في مضر وأنا شاعرها ؟ فغلب الفرزدق على البيت، وهناك من زعم أن الفرزدق قال لجميل:تجاف لي عنه، فتجاف جميل عنه والأول أصح[32].

3. **المرافدة:** أن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له، وقد ذكر ابن رشيق أمثلة عن ذلك.

4. **الإهتدام:** الإهتدام مأخوذ من الهدم، تشبيها بهدم البيت من البناء ولكن الهدم المقصود ليس كاملا؛ بل هو هدم جزئي قد لا يتجاوز كلمة واحدة[33]، وقد أورد ابن رشيق قول النجاشي.

وكنت كذي رجلين رجل صحيحه ورجل رمت فيها يد الحدثان

أخذ كثير القسم الأول واهتدم باقي البيت فجاء بالمعنى في غير لفظ.

فقال: ورجل رمى فيها الزمان فشلت

5. **النظر والملاحظة:** عرف الحاتمي هاتين الكلمتين بقوله "وهذه ضروب دقيقة قلما ترد المدارك من الإشارة إلى المعنى وإخفاء السر"[34].

ويوضح نبيل رشاد نوفل ذلك بقوله: وهذا يعني أن المقصود هو الأخذ الخفي؛ بحيث تنقطع الصلة بالأصل المأخوذ منه ما يكسبه الشرعية ويبعد عنه كلمة السرقة، وقد أورد الحاتمي المثال الآتي عن النظر والملاحظة.قال أوس بن حجر:

سأجزيك أو يجزيك عني مُثَوِّبٌ وحسبك أن يثنى عليكِ وتُحمَدي.

ينظر إليه قول الحطيئة نظرا خفيا حتى يكشف قناعه:

من يفعل الخير لا يعدم جوَازيَه لا يذهب العرفُ بين اللهِ والناسِ.

فقوله لا يذهب العرف بين الله والناس هو قول أوس بن حجر:

سأجزيك أو يجزيك عني مثوب ومن الخطيئة زيادة بذكر الناس(35)

6. **الإلمـام**: الإلمام ضرب من النظر وهو مثل قول أبي الشيص:

اجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمني اللوم

وقول أبي الطيب:

أحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه(36).

7. **الاختلاس**: لم يذكره الحاتمي مثل له ابن رشيق بقول أبي نواس:

ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكانُ

اختلسه من قول كثير:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلي بكل سبيل(37)

8. **الموازنة**: وقد مثل له ابن رشيق بقول كثير:

تقول مرضنا فما عدتنا وكيف يعود مريض مريضًا

وازن في القسم الأخير قول النابغة نابغة بني تغلب:

بخلنا لبخلك قد تعلمين وكيف يعيب بخيل خيلا.

9. **المـواردة:** المواردة هي اتفاق خواطر بين شاعرين، وتحدث عندما يخوض شاعران معنى متشابها. ينقل ابن رشيق هذا الخبر في المواردة فيقول: "سئل أبو عمرو بن العلاء: أرأيت الشاعرين يتفقان في المعنى ويتواردان في اللفظ، لم يلق واحد منهما صاحبه، ولم يسمع بشعره قال تلك عقول رجال توافت على ألسنتها، وسئل أبو الطيب عن مثل ذلك فقال: الشعر جادة وربما وقع الحافر على موضع الحافر"(38).

ويقول ابن رشيق أن المواردة ادعاها قوم في بيت امرئ القيس وبيت طرفة بن العبد، فيقول امرؤ القيس:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم　　　يقولون لا تهلك أسًى وتحَمَلِ

ويقول طرفة:

وقوفا بها صحبي عليَ مطيهم　　　يقولون لا تهلك أسى وتجلدِ

فالبيتان لم يختلفا إلا في القافية حين قال احدهما وتحمل وقال الآخر وتجلد، فهل هي مواردة؟

يشكك ابن رشيق في ذلك قائلا "ولا أظن هذا مما يصح لأن طرفة في زمان عمرو بن هند شاب حول العشرين، وكان امرؤ القيس في زمان المنذر الأكبر كهلا واسمه وشعره أشهر من الشمس، فكيف يكون هذا مواردة[39].

10. <u>الالتقاط والتلفيق</u>: وهو نوع من الأخذ الخفي المتعدد المصادر، لا يأخذ فيه الشاعر من شاعر معين، بل يجمع جزيئات صورته من هنا وهناك[40]، عرفه الحاتمي بقوله إنه "ترقيع الألفاظ وتلفيقها واجتذاب الكلام من أبيات حتى ينظم بيتا"[41].

ومن امثلته قول يزيد بن الطثرية:

إذا ما رآني مقبلا غض طرفه　　　كان شعاع الشمس دوني يُقابِلُه

فأوله من قول جميل:

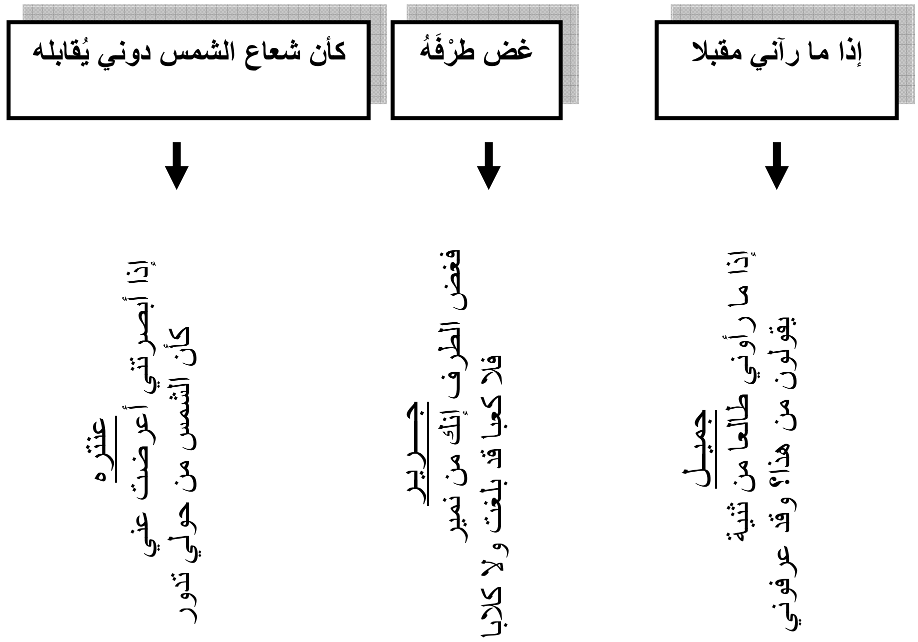
إذا ما رأوني طالعًا من ثَنَيَةٍ　　　يقولون من هذاظ وقد عرفُوني

ووسطه من قول جرير:

فغض الطرف إنك من نُمير　　　فلا كعبا بلغتَ ولا كِـلابَا

وعجزه من قول عنترة الطائي:

إذا أبصرتني أعرضتَ عني　　　كأن الشمس من حولي تدور.



11.**<u>كشف المعنى</u>:** هو أن يعمد الشاعر إلى جزئية من معنى فيتوسع فيها ومنه قول عنترة العبسي:وكما علمت شمائلي وتكرمي

* اشتهر أكثر من قول امرئ القيس:

وشمائلي ما قد علمت وما نبحت كلابك طارقا مثلي.

وهذا الصنيع محمود في رأي ابن رشيق يقول ابن رشيق: "والمخترع معروف له فضله، متروك له من درجته **المتبع، إذ تناول معنى فأجاده، بان يختصره إن كان طويلا أو يبسطه، إن كان كزا، أو يبينه إن كان غامضا، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا، أو رشيق الوزن إن كان جافيا، فهو أولى به من مبتدعه، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجهه إلى وجه آخر، فأما إن ساوى المبتدع، فله فضل حسن الاقتداء، فإن قصر كان ذلك دليلا على سوء طبعه، وسقوط همته، وضعف قدرته.

وحالات المتبع مع المبتدع من حيث الجودة والرداءة ثلاث:

1. أن يتفوق المتبع المبتدع وهذا حسن.

2. أن يتساوى مع المبتدع، فله حسن الاقتداء.

3. أن يتأخر عن المبتدع وهذا عيب مستهجن.

12.**نظم المنثور**:اعتبر ابن رشيق هذه الوسيلة من اجل السرقات، ولفظه اجل السرقات لفظة مدح وليست ذما، واعطى مثالا على ذلك قول أرسطو طاليس بندب الاسكندر، فقال: "قد كان هذا آرسطو طاليس يندب الاسكندر، فقال "قد كان الشخص واعظا بليغا، وما وعظ بكلامه عظة قط أبلغ من موعظته بسكوته، وقال أبو العتاهية في ذلك:

وكانت في حياتك لي عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا

فما جرى هذا المجرى لم يكن على سارقه جناح عند الحذاق(42)

تلك أوجه السرقات التي أوردها ابن رشيق في كتابه العمدة، خالف فيها بعض ما أورده الحاتمي، واتفق معه في بعضها الآخر تعريفا وإيراد أمثلة، وقد قسم الدكتور نبيل نوفل هذه الأصناف كما يلي:

ما يعد سرقة	ما لا يعد سرقة	وسائل السرقة
الانتحال الإغارة الاطتراف الاهتدام المجدود الاحتذاب البتر	الانحال المعاني العقم المواردة المرادفة الاجتلاب والاستلحاق الأخذ عن المعاني المشتركة	نقل المعنى إلى غيره النظر والملاحظة كشف المعنى الالتقاط والتلفيق نظم المنثور

نلاحظ من خلال الجدول السابق أن بعض المصطلحات الواردة عند الحاتمي لم يرد لها ذكر لدى ابن رشيق ومنها:

-***المجدود***: هي سرقة شانها شأن غيرها، غير أنها اكتسبت بعض الشرعية لاشتهار الآخذ بالمعنى دون المأخوذ منه، ومن ذلك قول امرئ القيس:

وشمائلي ما قد علمت وما نبحت كلابك طارقا مثلي

اخذه عنترة، وهذا المثال نفسه قد أورد ابن رشيق تحت عنوان كشف المعنى.

– ***الاجتذاب:*** هو سرقة مع التحوير، مثل قول المتنبي:

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

قال الحاتمي هذا البيت اجتذبه المتنبي من قول هميان بن قحافة:فهن حيرى كمُضِلات الخِدَمِ(43)

والاجتذاب يعني به الحاتمي الأخذ السيئ ولعله الاجتلاب عند ابن رشيق.

البتر:اخذ المعنى مع الإساءة إليه كقول أبي تمام:

من كل ذي لمة غطت ظفائره صدر الفتاة فقد كادت تُر عَلَمَا

اخذه المتنبي وتبتره فقال:

مبرقعي خيلهم بالبيض متخذي هام الكثماةِ على أرماحِهِم عذبَا

فالإفساد هنا مصدره "أن الهام لا تشبه بالعذب في حال حملها على القِنا إلا إذا كانت ذات لمم وظفائر، وإلا فهي مشبهة بالتيجان، بينما نجد التشبيه صحيحا في قول أبي تمام "فاللمة بالعذبة واقعة التشبيه والهامة مشبهة بالتاج"(44).

سادسا : الخلاصة

يمكننا القول إن الحديث عن ابن رشيق هو حديث عن حركة نقدية مؤصلة ومحترمة، وليس حديثا عن فلتة من فلتات الزمن أو عن استثناء، بل هو شجرة يانعة وسط بستان المغرب العربي الكبير.وهو رجل لم يكن يكتب من فراغ أو يقدم وجهة نظره وكفى؛ بل كان يستند إلى رصيد معرفي، وإلى تراث عريق مشرقي ومغربي، فقد استوعب الرجل آراء الآخرين، ونسبها إليهم، وأهمل النسبة عندما يكون بصدد الحديث عن أمور عامة ومشتركة يعتقد أنها ملك مشاع بين جمهور المثقفين.وإذا كان ابن رشيق كذلك فإنه لم يكن مجرد راوية أو ناقل فحسب؛ بل وفق بين النقل وبين بيان الرأي المدعم بالحجج والأمثلة الشعرية، فشخصيته النقدية ظاهرة في أكثر من موضع وفي أكثر من قضية.وهو بعمله النقدي قد أسدى خدمة جليلة لمعاصريه ولأحفاده في تلخيص وتفصيل كثير من الأمور النقدية، لدرجة أن قارئ العمدة قد يستغني عن كثير من الكتب النقدية.

وهناك مسألة نود الإشارة إليها وهي أن ابن رشيق يجمع بين فضيلتين هما الجانب النظري والجانب التطبيقي، فلم يكن ناقدا فقط بل كان مبدعا أيضا، وهو بهذه الصفة يشترك مع كثير من نقاد المغرب العربي مما سيكون لآرائه النقدية عظيم الفائدة وجليل القدر.

الهوامش

1) بشير خلدون: الحركة النقدية أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1987، ص 105. نقلا عن وفيات الأعيان بتصرف، ص 2/85-87.
(2) ابن رشيق القيرواني: العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، 1934، ص ز.
(3) عمر بن قينه: أدب المغرب العربي قديما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994ن ص 76
(4) ينظر بشير خلدون: المرجع السابق ص 55-194
(5)ابن رشيق القيرواني: العمدة، ص99:1
(6)ابن رشيق القيرواني: العمدة، ص 1/99-103
7) ابن رشيق: العمدة ص 1: 99
(8) ابن رشيق: العمدة، 1/107
(9)بشير خلدون: ص 136.
10) عباس محمودالعقاد:الديوان ، مكتبة السعادة ،مصرط2 .1921 ج2 ص 45.
(11)العمدة: ص 1/101
(12)بشير خلدون:المرجع السابق، ص 136
(13)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 1/96
(14)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 1/97.
(15)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 1/97.
(16)الجاحظ : الحيوان ، 3: 131-132.
(17)الجاحظ : السابق ، 3: 131
(18)الجاحظ : السابق ، 1: 115
(19)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 1/104
(20)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 1/106
(21)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 1/107.
(22)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 1/107
(23)حسن درويش: النقد العربي القديم، دار الإتحاد العربي للطباعة، 1991، ص 83.84
(24)حسن درويش: المرجع نفسه ص 84
(25)الجاحظ : الحيوان ، 3: 311.
(26)بشير خلدون: المرجع السابق ص 225 نقلا عن ابن رشيق، قراضة الذهب، ص.11
27) ابن رشيق : قراضة الذهب ص11
28)بشير خلدون: المرجع السابق ص 226.

28)ابن رشيق القيرواني: العمدة ص 226.
(29)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 256/2
(30)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 266/2.
(31)نبيل رشاد نوفل: أبو علي الحاتمي أفكاره النقدية وتطبيقاته، منشاة المعارف، الإسكندرية، ص 45-73
(32)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 269/2.
(33)نبيل رشاد نوفل:المرجع السابق ص 52
(34)نبيل رشاد نوفل: المرجع السابق، ص 66 ، نقلا عن الحلية، ج2، فقرة 932
(35)نبيل رشاد نوفل: المرجع السابق، ص 67 ، نقلا عن الحلية، ج2، فقرة 933.
(36)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 276/2.
(37)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 272/2.
(38)ابن رشيق القيرواني: العمدة: 273/2 .
(39)ابن رشيق القيرواني: العمدة: 273/2 .
(40)نبيل رشاد نوفل: المرجع السابق ص68
(41)نبيل رشاد نوفل: المرجع السابق ص68 نقلا عن الحلية ج 2 /فقرة 942.
(42)ابن رشيق القيرواني: العمدة: ص 278/2.
(43)نبيل رشاد نوفل: المرجع السابق ص 53، نقلا عن الموضحة، ص 49.
(44)نبيل رشاد نوفل: المرجع السابق ص 53، نقلا عن الموضحة، ص 49